المركز الوطني
لتطوير المناهج
National Center
for Curriculum
Development

كُتيّبُ الاستماعِ

الصّفُّ العاشرُ

الْفَصْلُ الدِّرَاسِيُّ الثَّاني

10

الإسلامُ والتّفاعلُ الحضاريُّ: حوارٌ أَمْ صراعٌ
لـ (ناصرِ الدّينِ الأسدِ)

حوارُ الثّقافاتِ أو حوارُ الحضاراتِ أو حوارُ الأديانِ أو حوارُ الإسلامِ والغربِ، كلُّها عناوينُ لموضوعٍ واحدٍ، أو لموضوعاتٍ متقاربةٍ متداخلةٍ، لا تكادُ تتمايزُ إلا بشيءٍ مِنَ التّعميمِ أو التّخصيصِ. وهي موضوعاتٌ كَثُرَ تناوُلُها في عددٍ مِنَ الكُتُبِ والمؤتمراتِ، وهي جديرةٌ بإعادةِ القولِ فيها ومداوَرتِها، لتوسيعِ نطاقِ المتفهِّمينَ لَهُ والمقتنعينَ بِهِ، عسى أنْ ينتقلَ الأمرُ مِنْ مرحلةِ الفَهْمِ والاقتناعِ إلى مرحلةِ التّعاونِ على العملِ المشتركِ بينَ جميعِ المؤمنينَ بالسّلامِ والعَدْلِ واقتلاعِ بذورِ الأحقادِ بينَ الشّعوبِ.

وهو حوارٌ قديمٌ قِدَمَ وجودِ الشُّعوبِ ذاتِ الحضاراتِ المتجاورةِ، بحيثُ كانتْ دائمًا تتبادلُ المعارفَ والخبراتِ والسِّلَعَ وأنماطَ الحياةِ مِنْ: سلوكٍ ومَلْبَسٍ ومأكلٍ وطُرُزِ عمارةٍ وأثاثٍ، وتستعيرُ الألفاظَ والعباراتِ وتقاليدَ المجتمعِ، فتصبحُ جزءًا مِنْ مفرداتِ لغاتِها وأساليبِ تعبيرِها وتدخلُ في نسيجِها الاجتماعيِّ؛ فتنمو بذلكَ الثّقافاتُ وتزدهرُ. ولولا تغايُرُ الشُّعوبِ واختلافُ الحضاراتِ ما كان لشيءٍ مِنْ ذلكَ أنْ يحدثَ.

ومِنْ أجلِ هذا خلقَنَا اللهُ سبحانَهُ شعوبًا وقبائلَ لنتعارفَ، ولو شاءَ سبحانَهُ لجعلَنا أمّةً واحدةً، لكنَّ حكمتَهُ عزَّ وجلَّ اقتضتْ أن يخلُقَنا مختلفينَ، وأنْ نظلَّ مختلفينَ، وأنْ نظلَّ كذلكَ، ربَّما مِنْ أجلِ هذا التّعارفِ والتّبادلِ والحوارِ. وحينَ كانتِ العلاقاتُ تضطربُ بينَ هذهِ الشعوبِ المختلفةِ، فتقومُ بينَهم الحروبُ، كانَ يحدثُ مِنْ خلالِها الاتّصالُ والتّعارفُ والتّبادلُ والتّمازجُ؛ فتتحقّقُ الأهدافُ نفسُها بالوسائلِ المتناقضةِ.

وقد قامَ في الآونةِ الأخيرةِ مَنْ يرى أنّ العلاقةَ بينَ الثّقافاتِ والحضاراتِ علاقاتُ صراعٍ لا ينتهي إلا بغَلَبَةِ ثقافةٍ وحضارةٍ بعَينِهما وسيادتِهما على الثّقافاتِ والحضاراتِ الأخرى. مِنْ ذلكَ ما ذهبَ إليهِ المُؤرِّخُ الأمريكيُّ مِنْ أصلٍ يابانيٍّ (فوكوياما) في كتابِه "نهايةُ التّاريخِ"، الّذي رأى فيهِ أنَّ تفكُّكَ الاتّحادِ السّوفييتيِّ قد أنهى الصِّراعَ في العالمِ بسيادةِ ثقافةِ النّموذجِ اللّيبراليِّ الأمريكيِّ على ثقافاتِ الأممِ الأخرى. وما ذهبَ إليه الأستاذُ الأمريكيُّ (صمويل هنتغتون) في كتابِهِ: "صراعُ الحضاراتِ"؛ مِنْ أنَّ الصِّراعَ الحاليَّ هو صراعٌ بينَ الثّقافاتِ.

لقد كانَ عصرُ التّنويرِ عندَ الأوروبيينَ هو بدايةُ عصرِ التّخلُّفِ والتّراجعِ للمسلمينَ، وأخذتْ الفجوةُ بينَ هذينِ العالَمَينِ في الاتّساعِ إلى أنْ وصلتْ إلى ما هي عليهِ الآنَ، بالرّغمِ مِنْ بعضِ المشابهِ في مظاهرِ الحضارةِ والتّقدُّمِ بينهُما: في المَلْبَسِ والمَسْكَنِ والمَطْعَمِ والمَشْرَبِ ووسائلِ التّنقُّلِ؛ فهي مشابهٌ تحملُ في طيّاتِها بذورَ الاختلافِ الكبيرِ بينَ عالَمٍ مبدعٍ منتجٍ متطوِّرٍ، وعالَمٍ مستوْرِدٍ مستهلِكٍ لما يبدعُه وينتجُهُ ويطوّرُهُ العالَمُ الأوّلُ. وتحتَ هذهِ القشرةِ مِنَ التّشابُهِ يصطخبُ التّباعدُ والتّناقضُ والاختلافُ.

ومَعَ كلِّ هذهِ المخاوفِ والاتّهاماتِ المتبادَلَةِ فإنّ محاولةَ إقامةِ علاقاتٍ ثقافيّةٍ بينَ الجانبينِ مستمرةٌ في صورةِ أنواعٍ مختلفةٍ مِنْ مؤتمراتِ الحوارِ وندواتِهِ: فمِنْ حوارٍ عربيٍّ أوروبيٍّ، إلى حوارِ الشّمالِ والجنوبِ، إلى حوارٍ إسلاميٍّ مسيحيٍّ. ومعَ أنّ هذا الحوارَ بدأَ- في صورتِه المنظَّمةِ الحديثةِ- منذُ ما يزيدُ على عشرينَ عامًا، إلا إنّ كثيرينَ يُشكِّكونَ في جدواهُ، ويرَوْنَه بلا قيمةٍ حتّى الآنَ، وأنَّه محصورٌ بينَ نفرٍ محدودٍ داخلَ غرفٍ مغلقةٍ..، إلى آخرِ هذهِ الأحكامِ الّتي تنطبقُ على أشكالِ العلاقاتِ الثّقافيّةِ الأخرى.

في خضمِّ هذا الجوِّ مِنْ عدمِ الثّقةِ، ومِنْ عقابيلِ الماضي والحاضرِ، لم يعدْ يكفي أنْ يقفَ المرءُ موقفَ المُشاهِدِ غيرِ المبالي، ولا موقفَ المُتسامحِ السّلبيِّ، بل لا بُدَّ مِنْ موقفٍ إيجابيٍّ مِنَ التّفاهمِ وإقامةِ علاقاتٍ متداخلةٍ تقومُ على تبادلِ مصالحَ مشتركةٍ، ولا بُدَّ مِنْ محاولةِ تفهُّمِ الآخرِ، وتقبُّلِهِ كما هو، دونَ أنْ يعنيَ ذلكَ تطابقَ جميعِ الآراءِ والاتّجاهاتِ أو الموافقةِ عليها. فالتّواصلُ كالتّعدديّةِ إنّما يعني احتفاظَ كلِّ فريقٍ بخصائصِهِ وصفاتِهِ، وقَبُولَ الآخرِ على حالِهِ، وإلا انتفى معنى التّواصُلِ ومعنى التّعدّديّةِ.

ولا بُدَّ في هذا المجالِ مِنَ التّفرقةِ بينَ الأفكارِ والمواقفِ وبينَ التّعاونِ وتبادلِ العلاقاتِ الثّقافيّةِ، وكذلكَ لا بُدَّ في المجالِ الدّينيِّ مِنَ التّفرقةِ بينَ العقيدةِ والمعاملةِ، فإنّ المرءَ أو الشّعبَ يستطيعُ أنْ يحتفظَ بآرائِهِ، وبمواقفِهِ القوميّةِ والوطنيّةِ، وبعقيدتِهِ الدينيّةِ، وفي الوقتِ نفسِهِ يُقيمُ مَعَ مَنْ يخالفُه أنواعَ العلاقاتِ السّياسيّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصاديّةِ والثّقافيّةِ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ (سورة النحل). ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ (سورة العنكبوت/ الآية 46). ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ (سورة الممتحنة).

(ناصر الدين الأسد، نحن والآخر)

حضارةُ العربِ

لـ (جوستاف لوبون)

كانَ الرسولُ محمدٌ – صلّى الله عليه وسلّم– شديدَ الضّبط، كثيرَ التّفكيرِ، صموتًا، حازمًا، سليمَ الطّويّةِ، صبورًا، قادرًا على احتمالِ المشاقِّ، ثابتًا، بعيدَ الهمّة، ليّنَ الطّبعِ وديعًا، وكانَ مقاتلًا ماهرًا، لا يهربُ أمامَ المخاطرِ، ولا يُلقي بيديْهِ إلى التّهلُكةِ، وكانَ يعملُ لإنماءِ خُلُقِ الشّجاعةِ والإقدامِ في بني قومِهِ، وكانَ عظيمَ الفِطنةِ، وكان رابطَ الجأشِ إذا هُزِمَ، ومُعتدلًا إذا انتصرَ.

أصابَ محمدٌ –عليه السّلامُ– في بلادِ العربِ نتائجَ لم تُصِبْ مثلَها جميعُ الدّياناتِ الّتي ظهرتْ قبلَ الإسلامِ؛ ولذلكَ كانَ فضلُ محمدٍ – عليه السّلام– على العربِ عظيمًا، وإذا ما قيستْ قيمةُ الرّجالِ بجليلِ أعمالِهم كانَ محمَّدٌ منْ أعظمِ مَنْ عرفَهُمِ التّاريخُ، والتّعصّبُ الدّينيُّ هو الّذي أعمى بصائرَ مؤرّخي الغربِ عَنِ الاعترافِ بفضلِهِ.

إنّ القوةَ لم تكنْ عاملًا في انتشارِ القرآنِ، ممّا تركَ المغلوبينَ أحرارًا في أديانِهم؛ فإذا حَدَثَ أَنِ اعتنقَ بعضُ الأقوامِ النصرانيةُ الإسلامَ، واتّخذوا العربيّةَ لغةً لهم؛ فذلك لِما رأَوْهُ منْ عدلِ العربِ الغالبينَ، ممّا لم يرَوْا مثلَهُ مِنْ سادتِهم السّابقينَ، ولِما كانَ عليهِ الإسلامُ مِنَ السّهولةِ الّتي لم يعرفوها مِنْ قبلُ. لم ينتشرِ القرآنُ إذن بالسيفِ، بلِ انتشرَ بالدّعوةِ وحدَها، وبالدّعوةِ وحدَها اعتنقتْهُ الشّعوبُ.

أدركَ الخلفاءُ المسلمونَ إنّ النُّظُمَ والأديانَ ليستْ ممّا يُفْرَضُ قَسْرا؛ وكانَ مِنْ سياستِهم الثّابتةِ إذا ما أرادوا الاستقرارَ بقُطْرٍ، أنْ يكونوا على وئامٍ معَ الأهلينَ المغلوبينَ، وأنْ يحترموا دينَهم وشرائعَهم؛ فعاملوا أهَل كلِّ

قُطْرٍ استولوا عليهِ بلطفٍ عظيمٍ، تاركينَ لهم قوانينَهم ونُظُمَهم ومعتقداتِهم، غيرَ فارضينَ عليهم سوى جزيةٍ زهيدةٍ في الغالبِ، إذا ما قيستْ بما كانوا يدفعونَ سابقًا، في مقابلِ حفظِ الأمنِ بينهم؛ فالحقُّ أنّ الأُممَ لم تعرفْ فاتحينَ متسامحينَ مثلَ العربِ، ولا دينًا سَمْحًا مثلَ دينِهم.

وما جَهِلَهُ المؤرّخونَ من حِلْمِ العربِ الفاتحينَ وتسامحَهم كانَ مِنَ الأسبابِ السّريعةِ في اتّساعِ فتوحِهم وفي سهولةِ اعتناقِ كثيرٍ مِنَ الأممِ لدينِهم ونُظُمِهم ولغتِهم الَّتي رسختْ وقاومتْ جميعَ الغاراتِ، وبقيتْ قائمةً حتّى بعدَ تواري سلطانِ العربِ عَنْ مسرحِ العالمِ.

ومنَ الأمثلةِ على تسامحِ العربِ ورأفتِهم بالمغلوبين، أنّ العربَ حاصروا الإسكندريةَ حصارًا دامَ أربعةَ عشرَ شهرًا، وقُتِلَ في أثنائِهِ ثلاثةٌ وعشرونَ ألفَ جنديٍّ منَ العربِ، وإنّ عمرَو بنَ العاصِ كانَ سَمِحًا رحيمًا نحوَ أهلِ الإسكندريّةِ معَ تلكَ الخسارةِ التي أُصيبَ بها العربُ، ولم يقسُ عليهم، وصنعَ ما يكسِبُ بهِ قلوبَهم، وأجابَ مطالبَهم، وأصلحَ سُدودَهم وترَعَهم وأنفقَ الأموالَ الطائلةَ على شؤونِهم العامةِ.

وبالغَ العربُ في احترامِ حقِّ التملّكِ، حتّى ما كانَ منه خاصًّا بالمغلوبين، ومن ذلكَ أنَّ الأراضي التي أُخِذَتْ مِنَ المغلوبين بالفتحِ أُعيدتْ إليهم على أن يؤدّوا خِراجًا قلّما يزيدُ على خُمْسِ محصولاتِها، ويؤدي إحياءُ المواتِ عندَ العربِ إلى حقِّ التملكِ.

وكانَ للعربِ تأثيرٌ عظيمٌ في صقليّةَ؛ فقد كانتْ حينَ جلا العربُ عنها أرقى ثقافةً وصناعةً منها حين دخلوها. وتُركَ لنصارى صقليةَ كلَّ ما لا يمسُّ النظامَ العامَّ؛ فكانَ لهم كما في زمنِ الرّومِ قوانينُهم المَدَنيّةُ والدّينيةُ، وكانَ منهم حكامٌ للفصلِ في خصوماتِهم، وجبايةُ الجزيةِ السنويّةِ الَّتي فرضَها

العربُ عليهم، وكانت هذهِ الجزيةُ الَّتي هي دونَ ما كانَ يأخذُهُ الرّومُ، لا تُؤْخَذُ مِنْ رجالِ الدّينِ والنساءِ والأولادِ.

وجعلَ العربُ كلَّ ما لَهُ علاقةٌ بالحقوقِ المَدَنيّةِ؛ كالتّمَلّكِ والإرثِ وما إليهما، ملائمًا لعاداتِ صِقِلّيَةَ، ولم يرغبِ النورمانُ عنهُ حينَ استولوا عليها، وكانَ القساوسةُ أحرارًا في الخروجِ لابسينَ حُلَلَهُم الدّينيّةَ لينالوا المرضى القُربانَ الأقدسَ. ولم تكدْ أقدامُ العربِ ترسخُ في صقليةَ حتى أقبلوا على الزّراعةِ والصّناعةِ فانتشلوهما بسرعةٍ مِنَ الانحطاطِ الَّذي كانتا فيه، وأدخلوا إلى صقليةَ زراعةَ القطنِ وقصبِ السكرِ والدَرْدار (1) والزيتونَ وحفروا فيها التُّرَعَ والقنواتَ التي لا تزالُ باقيةً، وأنشأوا فيها المجاريَ المعقوفةَ الَّتي كانتْ مجهولةً قبلَهم.

وأنشأَ العربُ بسرعةٍ حضارةً جديدةً شديدةَ الاختلافِ عمّا سبَقَها، واتَّصَلَتْ بهم أممٌ متنوعةٌ، وتمكَّنوا مِنْ حَمْلِ أممٍ كثيرةٍ على اعتناقِ دينِهم، ولُغتِهم، وعاداتِهم، وطبائعِهم، وفنِّ عمارتِهم. وكان دَوْرُ التّسامحِ الدّينيِّ منطلقًا في ازدهارِ حضارتِهم، وحسبُنا الإشارةُ إلى قصّةِ أحدِ علماءِ الكلامِ العربِ الَّذي كانَ يحضرُ ببغدادَ دروسًا كثيرةً في الفلسفةِ يشتركُ فيها أُناسٌ مِنَ اليهودِ والزّنادقةِ والمجوسِ والمسلمينَ والنّصارى،.. إلخ؛ فيُسْتَمَعُ إلى كلِّ واحدٍ منهُم باحترامٍ عظيمٍ، ولا يُطْلبُ منهُ إلا أن يستندَ إلى الأدلّةِ الصادرةِ عَنِ العقلِ، فتسامحٌ كهذا لم تصلْ إليهِ أوروبا بعدَ ما قامتْ بهِ في أكثرَ مِنْ ألفِ سنةٍ مِنَ الحروبِ الطّاحنةِ.

(غوستاف لوبون، حضارة العرب)

المِفتاحُ

لـ (هند أبو الشّعر)

تجرُّ حذاءَكَ الكبيرَ ببطءٍ على المِساحاتِ الإسفلتيّةِ، تتابعُ الظِّلالَ الصباحيّةَ المغمّسةَ بالنّدى، تراها تستطيلُ معكَ، تلحقُ خُطاكَ المتعبةَ، رماديّةً وباهتةً، تَبعثُ في النّفسِ الوَحْشةَ والتّردُّدَ: تُحسُّ بأنّ كلَّ الأشياءِ باهتةٌ، والنّهارُ ينفرشُ ببطءٍ على الدُّورِ.. لا تحِبُّ هذهِ الساعةَ، دائمًا، وفي الوقتِ نفسِهِ، أنتَ والمِساحاتُ الإسفلتيّةُ، بحذائِكَ المُجعّدِ، وكومةُ المفاتيحِ إيّاها تُثْقِلُ جَيبكَ الخاوي.. وهم، كلُّهم يتكرَّرونَ أمامَكَ.. نفسُ الوجوهِ المُنْسلّةِ مِنْ بيوتٍ مليئةٍ بالأجسادِ، يضغطونَ الفقرَ والغضبَ في مِساحةٍ ضيّقةٍ على الجبينِ، ويتطلّعونَ بإصرارٍ عجيبٍ إلى المِساحاتِ الإسفلتيّةِ.

–مهمومونَ..!

هذا ما قُلْتَ لنفسِكَ يا (فايز الجابر) وأنتَ تفعلُ مثْلَهُم، تغرزُ جبينكَ في الأرضِ، وكأنّكَ مشدودٌ بجاذبيّةٍ لا تُقَاوَمُ إلى المساحاتِ الرّماديّةِ البشعةِ، تُجَرِّبُ فجأةً وبحركةٍ سريعةٍ، أنْ ترفعَ بصرَكَ إلى الأُفقِ، تجدُهُ بعيدًا.. وتعرفُ تمامًا، مثلَ كلِّ صباحٍ بأنّه مجرّدُ مِساحاتٍ خاليةٍ وغريبةٍ.. ليستْ لكَ .. ولا لهذهِ الوجوهِ المقطِّبَةِ.. ليستْ لكم وإنّما للآخرينَ..! يجذِبُكَ المِغْناطيسُ الأرضيُّ إلى المِساحاتِ الإسفلتيّةِ وتَقْنَعُ بمراقبةِ حذائِكَ المُجعّدِ القديمِ...

–صباحُ الخيرِ..؟

يُصِرُّ بائعُ الكعكِ على تحيّتِكَ، تمامًا كما يفعلُ كلَّ صباحٍ، وهو يستعدُّ للوقوفِ أمامَ أبنيةِ المدرسةِ، يظُنُّكَ يا (فايز الجابر) شيئًا ذا قيمةٍ، لكَ سلطةٌ ووظيفةٌ محترمةٌ، فأنتَ الحارسُ الليليُّ للمدرسةِ.. تُرَدِّدُ تحيَّتَهُ بأحسنَ منها

وتسألُهُ عَنْ صحَّتِهِ، ثُمَّ تنسلُّ بظلِّكَ الضّامرِ مِنْ مدى بصرِهِ.. تلاحِقُكَ رائحةُ الكعكِ الطّازجةِ.. تهربُ.. والمساحاتُ تهربُ معكَ.. لا تدري لماذا تحرِّكُ يدَكَ بحركةٍ لا شعوريّةٍ إلى جيبكَ.. تتلمّسُ كومةَ المفاتيحِ اللعينةَ... عشراتُ الأبوابِ تغلِقُها كلَّ يومٍ وتفتحُها أيضًا.. مفاتيحُ تفتحُ الغرفَ المغلقةَ.. الغرفَ المتراصّةَ.. صفوفٌ تملؤُها عشراتٌ مِنَ الأدراجِ الفارغةِ، دائمًا فارغةٌ بعيدةٌ عَنِ الحياةِ أمامكَ.. وأنتَ تنسلُّ يا (فايز الجابر) في المَمرّاتِ وحيدًا.. لا أحدَ معكَ، والممرّاتُ المُعتِمةُ طويلةٌ وموحشةٌ.. وأنتَ وحدَكَ، بيدِكَ كومةُ المفاتيحِ، الكومةُ نفسُها الَّتي تفتحُ الأبوابَ للنّاسِ وتعجزُ عَنْ أنْ تفتحَ لكَ بابًا واحدًا جديدًا.. تتلمَّسُ الكومةَ، وتُمْسِكُ بِهِ بقوّةٍ، المفتاحُ الأخيرُ للغرفةِ الإسمنتيّةِ، حيثُ تنتظرُكَ الأجسادُ المتراصَّةُ، تغطُّ بنومٍ عميقٍ، وتنتظرُ خطُواتِكَ الصباحيّةِ.. الحذاءُ ذاتُه.. وفي السّاعةِ ذاتِها..

تنحدرُ عَنِ الرّصيفِ.. تواجِهُكَ الحُفَرُ.. الحُفَرُ نفسُها الَّتي لا تتغيّرُ.. تحفظُها عَنْ ظهرِ قلبٍ، وتتأفّفُ، يا للقسوةِ.. الأحذيةُ مبقورةٌ.. الشّوارعُ محفَّرَةٌ.. والقلوبُ يحْفُرُها الخوفُ والفقرُ والحاجةُ.. وأنتَ يا (فايز الجابر) بظلِّكَ الضّامرِ، تشدُّ على كومةِ المفاتيحِ الرّسميّةِ الَّتي تُثْقِلُ جيبَكَ..

ماذا لو أنكَ أُصبْتَ بحالةِ جنونٍ فجأةً..؟ وبدلًا مِنْ أَنْ تذهبَ إلى الغرفةِ الإسمنتيّةِ إيّاها، ركبْتَ أوّلَ باصٍ وتوجّهْتَ إلى بابِ السّفارةِ الأمريكيّةِ..؟ لماذا لا تفعلُ مثلَهم..؟ كلُّهم يتهامسونَ ويحملونَ أوراقًا ويقفونَ تحتَ الأشعّةِ الحارقةِ، للحصولِ على (الفيزا)، بالأمسِ فقط طاردَتْكَ الفكرةُ.. حلُمْتَ بها..... تلبّسَتْكَ طِوالَ الليلِ، وأنتَ تسيرُ وحيدًا في الممرّاتِ الطويلةِ المُعْتِمَةِ.. سمعتَهم عندَ الظّهرِ يتدارسونَ الأوضاعَ في دكّانِ (أبي أحمد)، قالوا أشياءَ كثيرةً عَنِ الأعمالِ اليدويّةِ هناكَ.. وفهمتَ منهم أنّهم هناكَ في أمريكا

يُرحِّبونَ بالمهاجرينَ، وأنّهم بحاجةٍ إلى عمّالِ محطّاتِ البنزين..(لا حاجةَ بكَ إلى اللغةِ.. يحتاجونَ إلى عضلاتِكَ هناكَ.. لا إلى الألسنةِ..) أطْرقْتَ تفكِّرُ بالأمرِ، كنتَ تشربُ الشّايَ بالنّعناعِ معَهُم، وكانَ (أبو أحمد) مثلَكَ يستمعُ إليهم بصمتٍ، وهو يرشُفُ الشايَ ويُضيفُ إليه السُّكَّرَ أكثرَ مِنْ مرَّةٍ.. ولمَ لا يا (فايز الجابر)..؟ ستُلقي كومةَ المفاتيحِ أمامَ مديرِ المدرسةِ.. تودِّعُهُ.. وتتطلَّعُ إلى وجهِهِ المزروعِ بالدّهشةِ بقوّةٍ.. لَنْ تخافَه بعدَ اليومِ.. وستسيرُ في الشّارعِ إيّاه.. لَنْ تزرعَ جبينَك كالعادةِ في المساحاتِ الإسفلتيّةِ الرماديّةِ.. ستتطلَّعُ إلى الآفاقِ بلا توقُّفٍ، تقفزُ فجأةً، صوتُ الزامورِ المجلجلِ لشاحنةٍ يرعِبُكَ .. تتداعى أحلامُكَ.. تزيدُ مِنْ سرعَتِكَ وتنسلُّ إلى الأمامِ باندفاعٍ، سأستدينُ ثمنَ التذكرةِ.. وأستدينُ أيضا– مبلغًا آخرَ مِنَ المالِ، وأضَعُه في يدِ أمِّ العيالِ، وسأحصلُ على الجنسيّةِ بأيِّ ثمنٍ، سأعملُ أيَّ عملٍ.. في محطّةِ بنزينٍ.. في مطعمٍ، سأُعلِّمُهم عملَ الفلافلِ.. والحمصِ.. وسأسحبُ الأجسادَ المتراصّةَ إلى هناكَ.. وأشتري بيتًا، لَهُ مساحةٌ واسعةٌ خضراءُ.. سأزرعُ الملوخيّةَ والبطّيخَ.. ولَنْ أسيرَ هناكَ على المساحاتِ الإسفلتيّةِ .. ولَنْ أحملَ مفاتيحَ أبدًا في جيبي..

–صباحُ الخيرِ..

صوتُ البابِ الحديديِّ لدكّانِ أبي أحمدَ يَصِرُّ في أذنيكَ.. ووجهُهُ الهادئُ يطالِعُكَ.. يدقُّ قلبَكَ.. يشتعلُ الفرحُ في صدرِكَ، وتُقرّرُ أَنْ تسأَله.. ستفاتِحُه بالمسألةِ.. والرّجلُ طيّبٌ، لن يَغُشَّكَ أو يخذلَكَ..

–« أبو أحمد»...

–أهلًا يا جار..

–«بتسمح لي بكلمتين»...؟!!

–تفضّل.. كلمتين مع كاسة شاي بالعَسَل»..

–الله يزيد فضلك..

تنفتحُ عينا الرّجلِ فجأةً صوتُكَ المتردِّدُ.. تتابعُه وهو يصبُّ لكَ الشايَ بالنّعناعِ.. يضعُ الأوراقَ الطّازجةَ في الكوبِ.. يقولُ أخيرًا بصوتِه الهادئِ:

–آه.. « كلُّ شيءٍ ممكنٌ ... لكنْ يا جارُ أمَا فكّرْتَ بالغربةِ...؟ أمّا فكّرْتَ أنّكَ في أمريكا، لَنْ تظفرَ بأحدٍ يقولُ لكَ: «صباح الخير»، أو يشاركُكَ فنجانَ شايٍ»...؟

تكرعُ باقي الشّايِ بالنّعناعِ .. تتلمَّسُ بحركةٍ لا شعوريّةٍ كومةً مِنَ المفاتيحِ.. تودِّعُ الرّجلَ، وتتّجهُ نحوَ الغرفةِ الإسمنتيّةِ.. تأخّرْتَ عَنْ موعدِكَ المعتادِ.. تقفُ أمامَ البابِ المُغْلقِ.. تتلمّسُ كومةَ المفاتيحِ، تستخرجُ المفتاحَ بصمتٍ، ورائحَةُ العرقِ الليليِّ تنبعثُ بحرارةٍ مِنَ الأجسادِ الفتيّةِ الحارّةِ.. تتنشَّقُها، وتتوحَّدُ أنفاسُكَ بها.. تحسُّ رائحةَ النعناعِ ما زالتْ تنعِشُ جوفَكَ.. تفكُّ حذاءَكَ المجعّدِ بهدوءٍ، والعيونُ الفتيّةُ تتفتَّحُ أمامَكَ بفرحٍ طازجٍ.

رسائلُ الجاحظِ في الحنينِ إلى الأوطانِ

إنّ السببَ الذي بَعَثَ على جَمْعِ نُتَفٍ من أخبارِ العربِ في حنينِها إلى أوطانِها وشوقِها إلى تُرْبِها وبُلدانِها، أنّي فاوضْتُ بعضَ مَن انتقلَ من الملوكِ في ذِكْرِ الدِّيارِ والنِّزاعِ إلى الأوطانِ، فَسَمِعْتُهُ يَذْكُرُ أَنَّهُ اغْتَرَبَ مِنْ بَلَدِهِ إلى آخرَ أَمْهَدَ مِنْ وَطَنِه، وأَعْمَرَ مِنْ مَكانِهِ، وأَخْصَبَ مِنْ جَنابِه. ولم يَزَلْ عظيمَ الشأنِ جليلَ السلطانِ، تَدينُ لَه مِنْ عشائرِ العَرَبِ ساداتُها وفتيانُها، ومِنْ شُعوبِ العَجَمِ أنجادُها وشُجْعانُها، يَقودُ الجُيوشَ ويَسوسُ الحُروبَ وليسَ ببابِه إلا راغبٌ إليْهِ أو راهبٌ مِنْهُ، فكانَ إذا ذَكَرَ التُّرْبَةَ والوَطَنَ حَنَّ إليْهِ حنينَ الإبلِ إلى أَعْطانِها، وكانَ كما قالَ الشاعرُ:

إذا ما ذَكَرْتُ الثَّغْرَ فاضَتْ مَدامِعي
وأَضْحى فُؤادي نُهْبَةً لِلْهماهِمِ
حنيناً إلى أرضٍ بها اخْضرَّ شارِبي
وحُلَّتْ بها عَني عُقودُ التَّمائِمِ
والطَفُ قَوْمٍ بالفَتى أهلُ أَرْضِه
وأَرْعاهُمُ لِلْمَرءِ حَقَّ التقادُمِ

وقالَتْ العَجَمُ: مِنْ عَلامَةِ الرُّشْدِ أنْ تكونَ النَّفْسُ إلى مَوْلِدِها مُشْتاقَةً، وإلى مَسْقَطِ رأسِها تَوّاقَةً. وقالتْ الهِندُ: حُرْمَةُ بلدِكَ عليكَ مِثْلُ حُرْمَةِ أَبَويْك؛ لأنّ غِذاءَكَ مِنْهُما، وغِذاءَهما منه. وقال آخرُ: احْفَظْ بَلداً رشَّحَكَ غِذاؤُه، وارْعَ حِمَىً أكنَّكَ فِناؤُه. وأَوْلى البُلْدانِ بِصَبابَتَكَ إليْهِ بَلَدٌ رَضِعْتَ ماءَهُ وطَعِمْتَ غِذاءَهُ. وكانَ يُقالُ: أَرْضُ الرَّجُلِ ظِئْرُهُ، ودارُهُ مَهْدُهُ. والغَريبُ النَّائي عن بَلَدِهِ المُتَنَحِّي عَنْ أَهْلِهِ، كالثَّوْرِ النادِّ عَنْ وَطَنِه، الذي هُوَ لِكلِّ رامٍ قنيصَة.

وقالَ آخرُ: الكريمُ يَحِنُّ إلى جنابِه، كما يَحِنُّ الأسدُ إلى غابِه. وقالَ آخرُ: تُرْبَةُ الصِّبا تَغْرِسُ في القَلْبِ حُرْمَةً وَحَلاوَةً، كما تَغْرِسُ الولادَةُ في القَلْبِ رِقَّةً وَحَفاوَةً. وقالَ آخرُ: أَحقُّ البُلدانِ بنِزاعِكَ إليْهِ بَلدٌ أَمَصَّكَ حَلَبَ رَضَاعِه. وقالَ آخرُ: إذا كانَ الطَّائِرُ يَحِنُّ إلى أَوْكارِه، فالإنسانُ أَحقُّ بالحنينِ إلى أَوْطانِه. وقالتْ الحُكَماءُ: الحنينُ مِنْ رِقَّةِ القَلْبِ، وَرِقَّةُ القَلْبِ مِنَ الرِّعايَةِ، والرِّعَايَةُ من الرَّحْمَةِ، والرَّحْمَةُ مِنْ كَرَمِ الفِطْرَةِ، وَكَرَمُ الفِطْرَةِ مِنْ طَهارَةِ الرِّشْدَةِ، وطَهارَةُ الرِّشْدَةِ مِنْ كَرَمِ المَحْتِدْ. وقال آخر: ميلك إلى مولدك من كرم مَحْتِدِكَ. وقالَ آخرُ: عُسْرُكَ في دارِكَ أعزُّ لكَ من يُسرِكَ في غُرْبَتِكَ. وأَنْشَدَ:

لَـقُـرْبُ الدَّارِ في الإقْتارِ خَيْرٌ

مِنَ العَيْشِ المُوسَّعِ في اغْتِرابِ

وقالَ آخرُ: الغريبُ كالغَرْسِ الذي زايَلَ أَرْضَهُ، وفَقَدَ شِرْبَه؛ فَهُوَ ذاوٍ لا يُثْمِرُ، وذابِلٌ لا يَنْضُرُ. وقالَ بَعضُ الفلاسِفَةِ: فِطْرَةُ الرَّجُلِ مَعْجونَةٌ بِحُبِّ الوَطَنِ؛ ولذلكَ قالَ أبقراط: يُداوَى كُلُّ عليلٍ بِعقاقيرِ أَرْضِه، فإنّ الطبيعةَ تَتَطلَّعُ لِهوائِها، وتَنْزِعُ إلى غِذائِها. وقالَ جالينوس: يَتَرَوَّحُ العَليلُ بِنَسيمِ أَرْضِهِ، كَما تَنْبُتُ الحَبَّةُ بِبَلِّ القَطْرِ.

وقالَ ابْنُ الزبير: «لوْ قَنَعَ النَّاسُ بِأَرْزاقِهِمْ قَناعَتِهِمْ بِأَوْطانِهِمْ ما اشْتَكى عَبْدٌ الرِّزْقَ». وتَرى الأَعْرابُ تَحِنُّ إلى البَلَدِ الجَدْبِ، والمَحَلِّ القَفْرِ، والحَجَرِ الصَّلْدِ، وتَسْتَوْخِمُ الرِّيفَ. وتَرى الحَضَريَّ يُولَدُ بِأَرْضِ وَباءٍ ومُوتانٍ* وقلَّةِ خِصْبٍ، فإذا وَقَعَ ببلادٍ أَرْيَفَ مِنْ بِلادِه، وجَنابٍ أَخْصَبَ مِنْ جَنابِه، واسْتَفادَ غِنىً، حَنَّ إلى وَطَنِهِ وَمُسْتَقَرِّه. ومما يُؤكد ما قُلْنا في حُبِّ الأَوْطانِ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ حينَ ذَكَرَ الدِّيارَ يُخْبِرُ عَنْ مَواقِعِها مِن قُلوبِ عِبادِه، فقال: « ولو أَنَّا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم»؛ فَسوّى بين قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ وبينَ الخُروجِ مِن دِيارِهِمْ.

وقالَ عُمَرُ (رضي الله عنه): «عَمَّرَ اللهُ البلدانَ بِحبِّ الأوطانِ. وكانَ يُقالُ: لولا حُبُّ الأوْطانِ لَخَسِرَتْ البُلْدانُ». وقالَ عبدُ الحميدِ الكاتبُ، وذَكَرَ الدُّنيا: «نَفَتْنا عن الأوطانِ، وقَطَعَتْنا عن الإخوانِ». وقالَ حكيمٌ: مِن أَماراتِ العاقلِ برُّهُ لإخوانِه، وحنينُه لأوْطانِه، ومُداراتِه لأهلِ زمانِه. وقالتْ العربُ: حِماكَ أَحْمَى لكَ، وأَهْلُكَ أَحْفَى بِكَ. وقيلَ: الغُربَةُ كُرْبةٌ، والقِلَّةُ ذِلَّةٌ. وقالَ شاعِرٌ:

لا تَرْغبوا إخوتي في غربةٍ أبدا
إنّ الغريبَ ذليلٌ حيثُما كانا

وقالَ آخرُ: لا تَنْهَضْ مِن وَكْرِكَ فَتَنْقُصَكَ الغُربةُ، وتَضيمَكَ الوَحْدةُ. وقالَ آخرُ: لا تَجْفُ أرضاً بها قوابِلُكَ، ولا تَشْكُ بلداً فيه قَبائِلُكَ. وقالَ أصحابُ القَيافَةِ في الاسْتِرْواحِ: إذا أحَسَّتْ النَّفْسُ بِمَوْلِدِها* تفتَّحَتْ مسامُّها فَعَرَفَتْ النسيمَ. وذكرَ أعرابيٌّ بلدةً فقالَ: رَمْلَةٌ كُنْتُ جنينَ رُكامِها، ورَضيعَ غمامِها، فَحَضَنَتْني أَحشاؤُها، وأرْضَعَتْني أحساؤُها. وشبَّهَتْ الحُكَماءُ الغريبَ باليتيمِ اللطيمِ الذي ثَكِلَ أَبويْه؛ فلا أمَّ تَرأَمُه ولا أبَ يَحْدِبُ عَليْه. وقالتْ أعرابيةٌ: إذا كنتَ في غيرِ أهلِكَ فلا تنسَ نصيبَك من الذلِّ.

وكانتْ العربُ إذا غَزَتْ وسافَرَتْ حَمَلتْ مَعَها مِن تُربَةِ بَلدِها رمْلاً وعَفَرَا تَسْتَنْشِقُهُ عِنْدَ نَزْلَةٍ أو زُكامٍ أو صُداعٍ. وقالَ آخرُ: أرضُ الرَّجُلِ أَوضحُ نَسَبِه، وأهلُه أَخْضرُ نَشَبِه. وقيلَ لأعرابيٍّ: كيفَ تصنعُ في البادِيةِ إذا اشتدَّ القيظُ، وانتعلَ كلُّ شيءٍ ظِلَّهُ؟ قالَ: وهل العيشُ إلا ذاكَ؟ يمشي أحدُنا ميلا فَيَرْفَضُّ عَرَقاً، ثم ينصِبُ عصاهُ ويُلقي عليها كِساءَه، ويجلِس في فَيْئِهِ يَكتالُ الريحَ، فَكأَنَّهُ في إيوانِ كِسرى!!!

(الجاحظ، الحنين إلى الأوطان)

كِتَابُ الطَّالِبِ

حياتُنا وفنُّ المحادثةِ الضّائعِ

لـ (مهى قمر الدين)

كانَ التّواصُلُ عبرَ تاريخِ البشريّةِ وجهًا لوجهٍ، وهو جوهرُ تفاعِلِنا وتواصلِنا الإنسانيِّ، لكن اليومَ مَعَ وجودِ الإنترنتِ وتطبيقاتِهِ المختلفةِ مِنْ مثلِ (فيس تايم) و(سكايب) و(واتساب) و(سناب شات)، بتْنا نرسلُ الرّسائلَ النّصيّةَ والصّوتيّةَ ونتواصلُ بالبريدِ الإلكترونيِّ ونبني الصّداقاتِ عبرَ شبكاتِ التّواصلِ الاجتماعيِّ، حيثُ إنّ هذهِ التطبيقاتِ تتيحُ لنا التحدثَ معًا بسرعةٍ وسهولةٍ، وتمكِّننا مِنَ التّغلّبِ على بُعدِ المسافاتِ واختلافِ الأماكنِ الجغرافيّةِ.

وتعدّى الأمرُ كلَّ ذلكَ فأصبحْنا نتحدثُ إلى الأجهزةِ نفسِها عندما نلجأُ إلى مساعدينَ افتراضيّينَ، مثلَ (ألِكْسا) أو (كورتانا) أو (سيري)، فنطلبُ منهم تقديمَ خِدْماتٍ معيّنةٍ. إلا أنّ هذا النوعَ مِنَ التواصلِ الَّذي باتَ منتشرًا بقوّةٍ، لا سيَّما بينَ الأجيالِ الشّابّةِ، أدّى إلى خسارةِ مهاراتٍ حياتيّةٍ مهمّةٍ قد يكونُ أهمُّها فنُّ المحادثةِ والتّفاعلاتِ الحسّيّةِ في الحياةِ الواقعيّةِ.

أشارتْ دراسةٌ حديثةٌ قامَ بها مجموعةٌ مِنَ الباحثينَ في جامعةِ كاليفورنيا إلى أنّ القدراتِ الاجتماعيّةَ للأطفالِ تتدهورُ بشكلٍ كبيرٍ عندما يُعطون الأولويّةَ للتّواصلِ الرقميِّ على حسابِ التّفاعلِ وجهًا لوجهٍ.

ويمكننا القولُ: إنّ أبرزَ ضحايا هذا العالمِ «المتّصل» هو فنُّ المحادثةِ، فاليومَ بِتْنا نرى الناسَ مِنْ حولِنا يمشونَ ورؤوسُهم مُنحنِيَةٌ، وهم يحدّقونَ في شاشاتِهم المحمولةِ، وحتّى عندما يكونونَ بصحبةِ الأهلِ أو الأصدقاءِ يكونُ الجميعُ ملتصقًا بجهازِهِ الخاصِّ، لكن ما هي الأسبابُ الفعليّةُ لهذهِ الجاذبيّةِ القويّةِ للتواصلِ عبرَ الشّاشاتِ على حسابِ التواصلِ وجهًا لوجه؟

تقولُ الأستاذةُ بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، شيري توركل، في كتابها «استعادةُ المحادثةِ... قوّةُ الحديثِ في العصرِ الرقميِّ»، إنّ التواصلَ عبرَ الرسائلِ النصيّةِ يُعطينا الوقتَ للتفكيرِ في ردودِ أفعالِنا والقدرةِ على تعديلِ الرسائلِ وإعادةِ تحريرِها وتقديمِ ذاتِنا بالطّريقةِ الَّتي نريدُها مجرَّدةً من أيِّ أخطاءٍ. كما أنّ الشّاشاتِ تسمحُ لنا بالاختباءِ وراءَها لتجنُّبِ الإحراجِ في المواقفِ الَّتي تتطلبُ منّا التّعاملَ مَعَ أيِّ مشكلةٍ من المشكلاتِ العمليّةِ أو الشخصيّةِ أو العاطفيّةِ.

ففي «صمتِ التواصلِ» هناك شعورٌ بالراحةِ والأمانِ، مما يعطينا الجرأةَ للتواصلِ مع عددٍ كبيرٍ من الأشخاصِ، حيث يمكنُنا الإبقاءُ على بُعد المسافاتِ العاطفيّةِ والتحكُّمُ فيها لتكونَ لا قريبةً ولا بعيدةً، هذا النوعُ من التواصلِ يحرمُنا من اختبارِ العلاقاتِ الإنسانيّةِ الفعليّةِ بكلِّ ما تحملُ من غنى وفوضى وعفويّةٍ، والتي لا يمكنُ خنقُها بحدودِ التكنولوجيا.

لقد سادَ التّواصلُ الرقميُّ في حياتِنا إلى درجةِ أنّنا بِتْنا نخلطُ بينَ المحادثةِ والتواصلِ، لكنّ هناكَ فرقًا كبيرًا بينَ الاثنينِ، فغالبًا ما نلجأُ إلى وسائلِ التواصلِ لتجنُّبِ الشُّعورِ بالوحدةِ والإحساسِ بوجودِ الآخرينَ في حياتِنا، لكنْ ما يقدّمه لنا هذا التّواصلُ هو بمنزلةِ جرعاتٍ صغيرةٍ مِنَ المحادثاتِ لا يمكنُها أن تتراكمَ لتصلَ إلى مرتبةِ المحادثةِ الحقيقيّةِ وجهًا لوجهٍ، لأنّها تفتقرُ إلى عناصرَ أساسيّةٍ لا يمكنُ أن يوفّرها التّواصلُ الرقميُّ مهما تطوّرتْ أساليبُهُ، فعادةً ما تكونُ المحادثةُ وجهًا لوجهٍ مُثقلةً بالإشاراتِ غيرِ اللفظيّةِ، حيثُ تقدّمُ لنا مجموعةً مِنَ المعلوماتِ والمحفّزاتِ؛ مثلَ تعبيراتِ الوجهِ، ونبرةِ الصّوتِ، ولغةِ الجسدِ الَّتي تصلُ إلى أدمغتِنا، حيثُ تتمُّ معالجتُها بسرعةٍ وبطريقةٍ لا واعيةٍ.

وتشيرُ العديدُ مِنَ الأبحاثِ الحديثةِ في علمِ النّفسِ، ومن بينها البحثُ الَّذي قامتْ به عالمةُ النفسِ بجامعةِ (يال) الأميركيّةِ (جوي هيرش)، إلى أنّنا خلالَ المحادثاتِ وجهًا لوجهٍ نحاكي إيماءاتِ الآخرينَ لتعزيزِ التواصلِ، حيثُ يعملُ كلٌّ مِنَ التّطابقِ والتّعارضِ بينَ الإيماءاتِ والتّواصلِ اللفظيِّ كإشاراتٍ اجتماعيّةٍ تقومُ بعدَ ذلك بتعزيزِ التّفاعلِ اللاحقِ. كما إنّ ما نفقدُهُ مع التواصلِ الرقميِّ هو القدرةُ على التّعاطفِ مَعَ الآخرينَ؛ لأنّ العلاقاتِ البشريّةَ تتطلَّبُ منّا أَنْ نفهمَ مشاعرَ بعضِنا بعضًا، ووجهاتِ نظرِنا، لكنْ عندما يَحْجُبُ عنّا التواصلُ الرقميُّ تعابيرَ الوجهِ وغيرَها يَحْدُثُ تراجعٌ في درجةِ التّعاطفِ.

إضافةً إلى ما سَبَقَ، فإنّ وسائلَ التّواصلِ الرقميِّ تتضمّنُ الكثيرَ مِنْ عناصرِ التّشتيتِ الَّتي تؤثرُ في عمقِ التواصلِ. فعندما نتواصلُ مِنْ خلالِ الشّاشاتِ الرّقميّةِ نكونُ معزولينَ في فضائِنا الخاصِّ، ونحن نرسلُ الرسائلَ ونحدّقُ في شاشاتِنا الرقميّةِ، وعادةً ما يحدثُ أن ينبثقَ أمامَنا إشعاراتٌ معيّنةٌ قد تشتّتُ انتباهَنا، أو ربّما نقطعُ الرسالةَ للتحدّثِ مع شخصٍ آخرَ أو للقيامِ بأيِّ مهمّةٍ أخرى، فيصبحُ التواصلُ مُتَقطِّعًا ومُشتّتًا، مما يُفقدُهُ الكثيرَ من ميزاتِ المحادثةِ الفعليّةِ بمفهومها الإنسانيِّ الحقيقيِّ.

يؤكّد عالمُ الفيزياءِ الدنماركيُّ، تور نورترادرز، إنّ أكثرَ من 85% مِنَ المنبّهاتِ الَّتي تدخلُ أدمغَتَنا بصريّةٌ، ما يعني أنَّ كلَّ المُحفِّزاتِ البصريّةِ الَّتي تَحْدُثُ في وقتٍ معيّن تتنافسُ على جَذْبِ انتباهِنا، وهذا يعني أنّ أيَّ شيءٍ تُعلِّقُ عليه أعينُنا يحتملُ أن يصرفَ انتباهَنا بعيدًا عَنِ التّركيزِ على عمليّةِ التواصلِ الرقميِّ قيدَ الإجراءِ، لذلكَ تبقى جميعُ عناصرِ التّشتيتِ الخارجيّةِ سطحيّةً تتنافسُ على جذبِ انتباهِنا، ليصبحَ الانتباهُ –وهو العنصرُ الأكثرُ أهميةً في عمليّةِ التواصلِ الحقيقيِّ– هو العنصرَ الأهمَّ الضائعَ في عالمِ التّشتيتِ المتواصلِ.

وهكذا عندَ التواصلِ في المساحاتِ الرقميّة نكونُ أقلَّ تعاطفًا وأكثرَ تشتتًا وضياعًا بين المحفِّزاتِ المتنوّعةِ، ليصبحَ الخوفُ منْ أنْ يقودَنا ذلكَ إلى عالَمٍ من العزلةِ العاطفيّةِ.

وإذا انفصلْنا عَنِ الآخرينَ، ولم نتمكّنْ مِنَ التّواصلِ معهم بطريقةٍ تعاطفيّةٍ، فماذا يبقى مِنْ عمليّةِ التّواصلِ الفعليّةِ؟ ومن دونِ المحادثاتِ والتفاعلِ وجهًا لوجهٍ في العالَمِ الحقيقيِّ مَن سنصبحُ؟ كيفَ يُفترَضُ بنا أنْ نشعرَ ونختبرَ الأشياءَ ونشعرَ بوجودِنا الفعليِّ؟ مَعَ مَنْ يمكنُنــا مشــاركةُ حياتِنــا؟

هذهِ أسئلةٌ حقيقيّةٌ علينا طرحُها اليومَ في الوقتِ الَّذي علينا أنْ ننظرَ حولَنا، وندركَ أنَّه مَعَ كلِّ جاذبيّةِ التّواصلِ عبرَ الوسائطِ الرّقميّةِ، يبقى الفضاءُ الرقميُّ عقيمًا مِنَ النّواحي العاطفيّةِ، وتبقى المحادثاتُ الفعليّةُ هي الَّتي توجدُ النّسيجَ المتينَ الَّذي يربِطُنا بعضَنا بالآخرِ، ويحافظُ على علاقاتِنا الإنسانيّةِ الفعليّةِ.

(مجلّةِ العربيِّ، العدد 754)

الإدمانُ على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ
لـ (عبد الغني الحاوري)

أحدثتْ وسائلُ التواصلِ الاجتماعيِّ طفرةً كبيرةً في حياتِنا المعاصرةِ؛ وتغيُّراتٍ وتحدّياتٍ كثيرةً في الجوانبِ الفكريّةِ والثقافيّةِ والاجتماعيّةِ والسياسيّةِ والاقتصاديّةِ، إضافةً إلى ما أحدثَتْهُ منْ آثارٍ كبيرةٍ في النسيجِ الاجتماعيِّ؛ منها الإيجابيُّ ومنها السلبيُّ، ولعلَّ منْ آثارِها السلبيّةِ ما يُعرَفُ بالإدمانِ.

ظهرُ مصطلحُ «إدمان الإنترنتِ» عام 1995، عندما نشرَ (أونيل) مقالةً بعنوانِ: «سحرُ وإدمانُ الحياةِ على شبكةِ الإنترنتِ»، وتبِعَهُ (جولدبرغ) عام 1996، الذي رأى أنّ وصفَ هذا الإدمانِ بالاضطرابِ السلوكيِّ، وتعدُّ عالمةُ النفسِ الأميركيّةُ (كيمبرلي يونغ) أولَ مَنْ وَضَعَ مصطلحَ «إدمان الإنترنتِ» بمفهومهِ الطبّيِّ النفسيِّ الواضحِ، وهي مِنْ أوائلِ أطبّاءِ النّفسِ الّذين عكفوا على دراسةِ هذهِ الظّاهرةِ في الولاياتِ المتّحدةِ الأميركيّةِ.

ويُعرّفُه بعضُ العلماءِ بـ «الاستخدامُ المرَضيُّ للشّبكةِ الّذي يؤدّي إلى اضطرابٍ في السُّلوكِ»، وفي تعريفٍ آخرَ هو: «ضعفُ مقاومةِ المستخدمِ للإنترنتِ من جهةِ تركِه أو محاولةِ الابتعادِ عنه؛ إذ يستحوذُ عليهِ؛ بحيث يصبحُ الشخصُ معتمدًا عليهِ قسريًّا؛ مما يؤدّي إلى ضعفِ الأداءِ الوظيفيِّ والمهنيِّ والاجتماعيِّ». أمّا الجمعيّةُ الامريكيّةُ للطبِّ النفسيِّ (APA) فقد عرّفَتْه بأنّه اضطرابٌ سيكولوجيٌّ قسريٌّ نتيجةَ عدمِ الإشباعِ مِنِ استخدامِ الإنترنتِ، والمصابُ بهذا الاضطرابِ يعاني من أعراضٍ عديدةٍ».

مِنْ أبرزِ أعراضِ هذا الضّربِ مِنَ الإدمانِ: الاكتئابُ والشعورُ بالإحباط؛ فالشخصُ المفرطُ في استخدامِ وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ هو أكثرُ الأشخاصِ عرضةً للمشاكلِ والاضطراباتِ النفسيّةِ، ويعودُ السّببُ في هذهِ الاضطراباتِ إلى أنّه كلّما زادَ إفراطُ الفردِ في الاستخدامِ تراجعَتْ مهاراتُهُ الاجتماعيّةُ والشّخصيّةُ والأسريّةُ، أو فُقِدَتْ؛ لأنّ هدفَه الرئيسَ الهروبُ من الواقعِ، فهو لا يسعى لتطويرِ مهاراتِهِ الذّاتيّةِ اللازمةِ لتحمّلِ أعباءِ الحياةِ، فتسيطرُ عليهِ الشخصيّةُ الانسحابيّةُ، الّتي تتمثّلُ في انكفائِهِ على ذاتِه؛ الأمرُ الّذي يؤدّي بِه إلى صدماتٍ نفسيّةٍ بسببِ دخولِه في مشكلاتٍ متعدّدةٍ مع أسرتِه ومجتمعِه، وهو ما قد يتحوّلُ إلى اكتئابٍ. ومِنْ أعراضِ الإدمانِ أيضًا التوتُّرُ وفرطُ العصبيّةِ إنْ توقّفَ الإنترنتُ، أو لم يتمكّنْ من الدّخولِ إليهِ لسببٍ ما، فيجدُ نفسَه مضطربًا حتّى يعودَ إليهِ.

ويشعرُ المدمنُ بالرغبةِ الدائمةِ والحاجةِ المستمرّةِ إلى المزيدِ مِنَ الوقتِ على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ، فهو غيرُ قادرٍ على التحكّمِ في وقتِه؛ ممّا يتسبّبُ في انسحابِه مِنْ واجباتِه أو تقصيرِه فيها. ووفقًا لعالِمةِ النفسِ الأميركيّةِ (كمبرلي يونج) فإنّ استخدامَ المرءِ للإنترنتِ أكثرَ من 38 ساعةً أسبوعيًّا يعدُّ مؤشرًا على الإدمانِ. ويتّصلُ بهذهِ النقطةِ أنّ المدمنَ يُخفي الفترةَ الحقيقيّةَ الّتي قضّاها على وسائلِ التواصلِ لشعورِه بالتأنيبِ المستمرِّ، ممّا يضطرُّهُ للكذبِ، وتلكَ مُعضِلةٌ أخرى. ومن الأهميّةِ بمكانٍ أنْ نفرّقَ هنا بينَ استخدامِ وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ لأغراضٍ علميّةٍ أو عمليّةٍ تتّصلُ بحياتِنا، وبينَ استخدامِها دونَ هدفٍ محددٍ؛ فبعضُ الأشخاصِ تضطرُّهم طبيعةُ عملِهم إلى التواصلِ مع الزبائنِ والمشتركينَ لفترةٍ طويلةٍ؛ فلا يعدُّ هذا إدمانًا.

ويذكرُ الدارسونَ مجموعةً من الأسبابِ المباشرةِ للإدمانِ؛ ومن أهمِّها

البطالةُ والفراغُ؛ فربّما لا يجدُ الفردُ عملًا، أو أنّ لديه وقتًا طويلًا لا يدري كيف يقضيه، فيتّجهُ لتبديدِه متنقّلًا بينَ هذهِ الوسائلِ الاجتماعيّةِ، ومن هنا تبدأُ المشكلةُ وتظهرُ الانحرافاتُ؛ فالشخصُ الَّذي لا يحملُ أهدافًا في حياتِهِ هو الأكثرُ عرضةٌ لكلِّ أنواعِ المشاكلِ والانحرافاتِ.

باتَتْ ظاهرةُ الإدمانِ على مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيِّ مشكلةً كبيرةً تؤرّقُ الوالدين، وتعاني منها الكثيرُ مِنَ الأُسَرِ؛ فالأبناءُ والبناتُ ينهمكونَ مع هذهِ الوسائلِ، وقد نسوا أو تناسَوا واجباتِهم أو مسؤوليّاتِهم الدينيّةِ والشخصيّةِ والأسريّةِ والاجتماعيّةِ وغيرَها من المسؤوليّاتِ، وقد ظنّوا أنّ هذهِ الوسائلَ ستجلبُ لهم السّعادةَ، لكنّ الفردَ العاقلَ لا يبحثُ عَنْ سعادتِه في شيءٍ سيتحوّلُ فيما بعدُ إلى مصدرٍ للتّعاسةِ والاكتئابِ، والشخصُ الّذي يتمتّعُ بعلاقاتٍ اجتماعيّةٍ وأسريّةٍ سليمةٍ في مأمنٍ من الوقوعِ في تلك الاضطراباتِ النفسيّةِ، فمتانةُ العلاقاتِ والصداقاتِ الَّتي يتمتّعُ بها تحميهِ من الانزلاقِ في ذلك الإدمانِ.

(عبد الغني الحاوري، العلاقات الأسرية في ظل الإدمان على وسائل التواصل الاجتماعي)

في الرّبيعِ الأزرقِ
لـ(مصطفى صادق الرّافعيِّ)

قالَ مصطفى صادق الرافعيُّ:

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرَقَينِ؛ البحرِ والسّماءِ.

نظرتُ إلى هذا البحرِ العظيمِ بعينَيْ طفلٍ يتخيَّلُ أنّ البحرَ قد مُلِئَ بالأمسِ، وأنّ السّماءَ كانتْ إناءً له، فانكفَأَ الإناءُ فاندفقَ البحرُ، وتسرَّحْتُ مَعَ هذا الخيالِ الطفليِّ الصّغيرِ فكأنّما نالَني رَشاشٌ مِنَ الإناءِ...

إنّنا لَنْ ندركَ روعةَ الجمالِ في الطّبيعةِ إلّا إذا كانتِ النَّفْسُ قريبةً مِنْ طفولتِها، ومرحِ الطّفولةِ، ولعبِها، وبراءتِها.

تبدو لكَ السّماءُ على البحرِ أعظمَ ممّا هي، كما لو كنتَ تنظرُ إليها مِنْ سماءٍ أُخرى لا مِنَ الأرضِ.

إذا أنا سافرْتُ فجئْتُ إلى البحرِ، أو نزلتُ بالصّحراءِ، أو حللْتُ بالجبلِ، شعرْتُ أوّلَ وهلةٍ مِنْ دهشةِ السّرورِ بما كنتُ أشعرُ بمثلِهِ لو أنّ الجبلَ أو الصّحراءَ أو البحرَ قد سافرَتْ هي وجاءَتْ إلَيَّ.

في جمالِ النّفسِ يكونُ كلُّ شيءٍ جميلًا؛ إذْ تُلقي النّفسُ عليهِ مِنْ ألوانِها، فتنقلبُ الدارُ الصّغيرةُ قصرًا؛ لأنّها في سعةِ النّفسِ لا في مِساحتِها هي، وتَعرِفُ لنورِ النّهارِ عذوبةً كعذوبةِ الماءِ على الظّمأِ، ويبدو الفجرُ بألوانِهِ وأنوارِهِ ونسماتِهِ كأنّه جَنّةٌ سابحةٌ في الهواءِ.

في جمالِ النّفسِ ترى الجمالَ ضرورةً مِنْ ضروراتِ الخليقةِ؛ وَيْ كأنّ اللهَ أمرَ العالَمَ ألّا يعبسَ للقلبِ المُبتسمِ.

أيّامُ المَصِيْفِ هي الأيّامُ الّتي ينطلقُ فيها الإنسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في

الإنسانِ، فيرتدُّ إلى دهرِهِ الأوّلِ؛ دهرِ الغاباتِ والبحارِ والجبالِ.

إنْ لم تكنْ أيّامُ المَصيفِ بمثلِ هذا المعنى، لم يكنْ فيها معنًى.

ليست اللّذةُ في الرّاحةِ ولا الفراغِ، ولكنّها في التّعبِ والكَدْحِ والمشقّةِ حينَ تتحوّلُ أيّامًا إلى راحةٍ وفراغٍ.

لا تتمُّ فائدةُ الانتقالِ مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ إلّا إذا انتقلتِ النّفسُ مِنْ شعورٍ إلى شعورٍ؛ فإذا سافرَ معكَ الهمُّ فأنتَ مقيمٌ لم تبرحْ.

يشعرُ المرءُ في المدنِ أنّه بينَ آثارِ الإنسانِ وأعمالِهِ؛ فهو في رُوْحِ العناءِ والكَدْحِ والنِّزاعِ؛ أمّا في الطّبيعةِ فيُحِسُّ أنّه بينَ الجمالِ والعجائبِ الإلهيّةِ.

إذا كنتَ في أيّامِ الطّبيعةِ فاجعلْ فكركَ خاليًا وفرِّغْه للنَّبْتِ والشّجرِ، والحَجَرِ والمَدَرِ، والطيرِ والحيوانِ، والزّهرِ والعشبِ، والماءِ والسّماءِ، ونورِ النّهارِ وظلامِ الليلِ، حينئذٍ يفتحُ العالَمُ بابَهُ ويقول: ادخلْ!

لُطْفُ الجمالِ صورةٌ أخرى مِنْ عظمةِ الجمالِ؛ عرفْتُ ذلكَ حينَما أبصرْتُ قطرةً مِنَ الماءِ تلمعُ في غصنٍ، فخُيِّلَ إليَّ أنّ لها عظمةَ البحرِ لو صَغُر فعُلِّقَ على ورقةٍ.

أليسَ عجيبًا أنّ كلَّ إنسانٍ يرى في الأرضِ بعضَ الأمكنةِ كأنّها أمكنةٌ للرّوحِ خاصةٌ؟

الحياةُ في المدينةِ كشُربِ الماءِ في كُوْبٍ مِنَ الخَزَفِ؛ والحياةُ في الطّبيعةِ كشُرْبِ الماءِ في كوبٍ مِنَ البَلُّورِ السّاطعِ؛ ذاك يحتوي الماءَ، وهذا يحتويهِ ويُبدي جمالَهُ للعينِ.

في هذهِ الأيّامِ الطبيعيّةِ الّتي يجعلُها المَصيف أيامَ سرورٍ ونسيانٍ، يشعرُ كلُّ إنسانٍ أنّه يستطيعُ أن يقولَ للدُّنيا كلمةَ هَزْلٍ ودُعابةٍ...

تقومُ دنيا الرّزقِ بما تحتاجُهُ الحياةُ، أمّا دُنيا المَصيفِ فقائمةٌ بما تلذُّه

الحياةُ، وهذا هو الّذي يغيِّر الطّبيعةَ ويجعلُ الجوَّ نَفْسَهُ هناكَ جوَّ مائدةِ ظُرَفاءَ وظَريفاتٍ ...

تعملُ أيّامُ المَصيفِ بعدَ انقضائِها عملًا كبيرًا، هو إدخالُ بعضِ الشِّعْرِ في حقائقِ الحياةِ.

هذهِ السّماءُ فوقَنا في كلِّ مكانٍ، غيرَ أنّ العجيبَ أنّ أكثرَ الناسِ يرحلون إلى المصايفِ ليَرَوا أشياءَ منها السماءُ...

إذا استقبلْتَ العالَمَ بالنفسِ الواسعةِ رأيْتَ حقائقَ السّرورِ تزيدُ وتتّسعُ، وحقائقَ الهمومِ تصغرُ وتضيقُ، وأدرَكْتَ أنَّ دُنياكَ إنْ ضاقتْ فأنتَ الضيِّقُ لا هي.

في السّاعةِ التّاسعةِ أذهبُ إلى عملي، وفي العاشرةِ أعملُ كَيْتَ، وفي الحاديةَ عشرةَ أعملُ كَيْتَ وكَيْتَ؛ وهنا في المَصيفِ تفقدُ التّاسعةُ وأخواتُها معانيها الزّمنيّةَ الّتي كانتْ تضعُها الأيّامُ فيها، وتستبدلُ منها المعاني الَّتي تضعُها فيها النَّفْسُ الحرّةُ.

هذهِ هي الطريقةُ التي تُصنعُ بها السّعادةُ أحيانًا، وهي طريقةٌ لا يقدرُ عليها أحدٌ في الدّنيا كصغارِ الأطفالِ.

إذا تلاقى النّاسُ في مكانٍ على حالةٍ متشابهةٍ مِنَ السّرورِ وتوهُّمِه والفكرةِ فيه، وكانَ هذا المكانُ مُعَدًّا بطبيعتِهِ الجميلةِ لنسيانِ الحياةِ ومكارِهها، فتلكَ هي الرّوايةُ وممثِّلوها ومسرحُها، أمّا الموضوعُ فالسّخريةُ مِنْ إنسانِ المدينةِ ومَدنيّةِ الإنسانِ.

ما أصدقَ ما قالوهُ: إنّ المرئيَّ في الرّائي! مرضْتُ مدّةً في المصيفِ، فانقلبَتِ الطبيعةُ العروسُ الَّتي كانت تتزيّنُ كلَّ يومٍ إلى طبيعةٍ عجوزٍ تذهبُ كلَّ يومٍ إلى الطّبيبِ.

(مصطفى صادق الرافعيّ، وحي القلم)

رسالةٌ إلى ولدي
لـ (أحمد أمين)

أيْ بُنيَّ:

أيْ بُنيَّ إنّي لَأعلمُ أنّك قد خُلِقْتَ لزمنٍ غيرِ زمني، ورُبِّيت تربيةً غيرَ تربيتي، ونشأْتَ في بيئةٍ غيرِ بيئتي، وتعلّمْتُ أوّلَ أمري في كُتّابٍ متواضعٍ، نجلسُ فيهِ على الحصيرِ، ويعلِّمُنا مدرسٌ جبّارٌ، وأنت تعلّمْتَ في روضةِ الأطفالِ؛ حيث تشرفُ عليك آنسةٌ رقيقةٌ مهذبةٌ وتقدّمُ لك تعليمَ القراءةِ والكتابةِ في إطارٍ مِنَ الصّورِ والرُّسومِ والأغاني وما إلى ذلك. وكنتُ أعيشُ مَعَ كتابي على الفولِ النّابتِ والفولِ المدمّسِ، وأنت تعيشُ في روضتِك على اللبنِ والشّاي والبسكوتِ وما إلى ذلك.

ولكنْ برغم كلِّ هذا فالفروقُ –مهما كانت– فروقٌ جزئيّةٌ، ولا يزال بيني وبينك وجوهُ شبهٍ أعمقُ من هذهِ المظاهرِ، فالتغيّراتُ بينَ الناسِ –مهما اختلفت الأزمنةُ والأمكنةُ– تغيّراتٌ سطحيّةٌ وأمورٌ عرضيّةٌ، أمّا الإنسانُ في جوهرِه، والجمعيّاتُ البشريّةُ في نزعاتِها الأصيلةِ فترجعُ إلى أصولٍ واحدةٍ، ومن أجلِ هذا كانت تجاربُ السلفِ تفيدُ الخلفَ. فلأقصّ عليك شيئاً مِنْ تجاربي الَّتي أعتقدُ أنّها تفيدك، مهما اختلفت بيئاتُها ومدارسُها وثقافتُها.

أهمُّ ما جرّبتُهُ في حياتي قولُ الحقِّ والتزامُه، وتحرّي العدلِ وعملُه، يكسبُ الإنسانُ من المزايا ما لا يقدَّرُ، لقد احتملتُ في سبيلِ ذلكَ بعضَ الآلامِ، وأغضبتُ بعضَ الأنامِ، وضاعت عليَّ من أجلِه بعضُ المصالحِ، لكني برغمِ ذلك كلّه لقد استفدتُ منهُ أكثرَ مما خسرتُ، لقد استفدتُ منه راحةَ الضّميرِ، واستفدتْ منه ثقةَ الناس بما أقولُ وأعملُ، واستفدت منهُ حسنَ ظنّهم بما يصدرُ عنّي ولو لم يفهموا سببَهُ، ومَعَ هذا فقد استفدتُ منهُ أيضًا ماديًّا أكثرَ

ممّا استفادَ غيري، ممن لم يلتزموا الحقَّ ولم يراعوا الصدقَ والعدلَ.

ومن أهمّ تجاربي أيضاً أنّي رأيت كثيرًا من الناس يخطئون فيظنّون أنّ المالَ هو كلّ شيء في الحياة. يبيعونَ أنفسهم للمالِ، ويحاولونَ، ويحاولونَ أنْ يتزوجوا للمالِ. ويضيعون أعمارهم للمال، ويفرّطون في الفضيلة للمال، وقد أقنعتني التّجاربُ أنّ المالَ وسيلةٌ مِنْ وسائلِ السعادةِ حقّاً، بشرط أنْ يُطلَبَ باعتدالٍ، وينفقَ في اعتدالٍ، وبشرط ألا يكونَ ما تحصّـلُهُ كثيراً جمًّا، فتنقلبَ عبداً له، وبشرط أن يبقى المال وسيلة أبداً ولا ينقلب غاية أبداً . فإنّ أكثر الناسِ وقعوا في متاعب شتى من هذهِ الأخطاء .

فمنهم من بدأ حياته يطلب المال على أنه وسيلة، ثم استمر في طلبه بعد أن استوفى حاجته منه فانقلب غايةً، ومنهم من صرف حياته وتفكيره في المال وفي الاستزادة منه حتى فقد سعادته بل وفقد نفسه، وقد دلتني التجارب على أن أسعد الناس من وضع المال في موضع لائق به، فلم يرفضه رفضًا باتًا ولم يذل له ذلًا تامًا. ونظرَ إلى المال على أنه وسيلة من وسائل السعادة لا كل السعادة، ولم يطلبه إلا مع الشرف والعزة والإباء. فإن تعارض معها ضحى المال للفضيلة والغنى للضمير.

هذهِ يا بني بعض تجاربي في الحياة وما أكثرها! ولكني أخشى أن أطيل عليك فتمل، وأحب أن أقدم إليك جرعة فجرة لتستسيغها وتتذوقها وتأخذ نفسك بتشربها رشفة فرشفة. أذكر لي رأيك فيها، وموقعها عندك، ومبلغ استعدادك لقبولها، وفي ضوء ما أسمع منك ستتوالى كتاباتي إليك تقدم إليك كتاباتي كأسًا فكأسًا.

والسلام عليك ممن يحب لك الخير ويود أن تكون خيرًا منه، ويتمنى أن يحيا فيك خيرًا مما حيي في نفسه والسلام.

(أحمد أمين، إلى ولدي)

عرارٌ شاعرُ الأردنِّ

لـ (يعقوب العودات – البدويُّ الملثّمُ)

مِنْ حقِّ الأردنِّ أَنْ يفخرَ بِـ(عرارٍ) ويباهي بشاعرٍ نبَتَ في روابيه وبِقاعِه، ودرَجَ على هضابِهِ وتِلاعِه، وقد لاقى المتاعبَ والأهوالَ.

منذُ عرفْتُ عرارًا وأنا كَلِفٌ به، مُستقْصٍ آثارَهُ، ومنذُ عرفْتُ أبا وصفي وأنا كَلِفٌ بأخبارِهِ، وقد وطَّدْتُ العزمَ على إنصافِهِ، فإذا جازَ للأممِ الحيّةِ أَنْ تفاخرَ بشعرائِها الَّذين ذادوا عَنْ حياضِها وخلَّدوها، جازَ للأردنِّ أَنْ يفاخرَ بشاعرِهِ النّابغِ (مصطفى وهبي التل) القائلِ:

أنا (مصطفى وهبي) أتعرفُ مَنْ أنا؟

أنـا (شـاعـرُ الأردنِّ) غيرُ مـدافـعِ!

ومِنْ وقائعِ الذّكرى أُسجّلُ أنّه في يومٍ نديٍّ مِنْ أيّامِ نيسانَ 1922 حلَّ ضيفًا على بيتِنا في الكركِ معلمٌ شابٌّ فارعُ القامةِ، مستطيلُ الوجهِ، حادُّ النّظراتِ، بدويُّ القسَماتِ، ولفتَ انتباهي في هذا الماردِ الأسمرِ، جرأتُهُ في طلبِ ركوةِ القهوةِ منّي، وشعرُهُ الأسودُ الفاحمُ المنسدلُ على كتفيه، ووجهُهُ المعروقُ، ولثغتُهُ (راء) محبَّبةٌ تدخلُ الآذانَ بلا استئذانٍ، وقد سألتُهُ بروحِ طفولتي الوثّابةِ عن شَعْرِه المنسدلِ، أجابَ: تأسّيًا بعمرَ الخيّامِ، وكانت هذهِ أوّلَ مرةٍ أسمعُ باسمِ عمرَ الخيّامِ، وسألتُهُ لِمَ كفّاهُ صغيرتانِ والأناملُ طويلةٌ؟ أجابني: الكفّانِ صغيرتانِ لكنَّ المُخَّ كبيرٌ. أيقنْتُ وقتَها أنّني أمامَ فيلسوفٍ شاعرٍ.

وُلِدَ مصطفى وهبي في الخامسِ والعشرينَ مِنْ أيّارٍ عام 1897 في إربدَ، وَرِثَ عَنْ أبيه صالحِ التلِّ رهافةَ الحسِّ وتوقُّدَ الذّكاءِ، وورثَ عن والدتِهِ مريم المحيلان حدّةَ اللسانِ والطّبعِ، والعِنادَ. أنهى تعليمَهُ في مدرسةِ عنبرَ

في دمشقَ، وفي عام 1930 قدّمَ امتحانًا في القوانينِ والأنظمةِ المعمولِ بها في الأردنِّ، فتفوّقَ فيها ونالَ شهادةَ المحاماةِ علمًا أنّه درسَها على نفسِهِ دونَ الالتحاقِ بجامعةٍ.

وعن ثقافتِهِ أستطيعُ القولَ: إنّه كانَ على جانبٍ عظيمٍ من سعةِ الاطّلاعِ وكثيرًا ما كانتْ تدورُ بيننا مساجلاتٌ حادّةٌ عَنْ قضايا اللغةِ، وغيرها.

عُيّن عرارٌ مأمورًا للإجراءِ فرئيسًا لكُتّابِ محكمةِ إربدَ، ثمَّ مساعدًا للنائبِ العامِّ في عمّانَ، ويومَ كانَ يشغلُ هذهِ الوظيفةَ كتبَ قصيدةَ «إخواني الصعاليك» يُشفِقُ فيها على أولئكِ المناكيدِ الَّذينَ سامَهم المُرابون ذُلًّا. ولم يكنْ عرارٌ في مذاهبِهِ الاجتماعيّةِ متطرّفًا، وإنّما كانَ ثائرًا على الإقطاعيّةِ وداعيًا إلى قيامِ مجتمعٍ تعاونيٍّ حرٍّ، مجرّدٍ مِنْ الاستغلالِ السياسيِّ والاجتماعيِّ، يُؤمِّنُ للفقيرِ خبزَه ويسّرُ لهُ حياةً تفيضُ عدلاً، لذا نجدُهُ ثائرًا رافضًا للظلمِ، وقد تحمّلَ في ذلكَ فقدانَ مناصِبِه ودخولَ السّجنِ غيرَ مرّةٍ، ومِنْ شعرِهِ في هذا المقامِ:

قولـوا لـِ(عبّـود) عـلَّ القـولَ يشـفيني
إنّ المُرابيـنَ إخـوانُ الشّـياطينِ
كأنّمـا النّـاسُ (عبـدانٌ) لِدِرهمِهـمْ
وتحـتَ إمرتِهـم نـصُّ القوانيـنِ
أأَسْـجُنُ النـاسَ إرضـاءً لخاطِركـم
وخشيةَ (العزلِ) مِن ذا (المنصبِ الدّونِ)؟

ونتيجةَ انتشارِ الفسادِ الإداريِّ والفقرِ واضطرابِ الواقعِ السياسيِّ وضياعِ فلسطينَ توجَّه عرارٌ إلى التّلهي بمضاربِ النّوَرِ ومصادقتِهم، ويرى فيهم مجتمعًا متسامحًا تسودُهُ روحُ المساواةِ، ويعجُّ شعرُ عرارٍ بذكرِ النّوَرِ ومحاسنِهم والتغنّي بعاداتِهم:

(بيـنَ الخرابيشِ) لا(عبـدٌ) ولا (أمَةٌ)

ولا (أرِقّــاءُ) فــي أزيــاءِ أحــرارِ

(بينَ الخرابيش) لا حرصٌ ولا طمعٌ

ولا احتـرابٌ علـى (فِلْـسٍ) و(دينارِ)

تغنّى عرارٌ بالمكانِ الأردنيِّ، فذكرَ كثيرًا وادي الشتا، ووادي اليابس، ووادي السّير المكان الَّذي أحبَّ فيه فتاةً شركسيّةً وتغنّى بها بقولِهِ:

يا جيرةَ البانِ ليتَ البانَ ما كانا

ولا عرفْنا بوادي السّير خِلّانا

وتناهى يومًا لعرارٍ أنّ النّوَرَ ضربوا قِبابَهم في وادي السّيرِ، فتمنّى لو جعلَ المسؤولون الوقوفَ بوادي السيرِ إجباريًّا:

ليتَ الوقوفَ بـِ(وادي السير) إجباري

وليتَ جارَك يا (وادي الشتا) جاري

ومِنْ جوانبِهِ الوطنيّةِ المشرقةِ أنّهُ رأى في العدوِّ المحتلِّ لفلسطينَ خطرًا يهدِّدُ الوطنَ العربيَّ ويُعجِّلَ في تهويدِ فلسطينَ، وفي ذلكَ قولُه:

يــا ربِّ إنْ (بلفــورُ) أنفــذَ وعــدَه

كَـمْ (مسـلم) يبقـى وكـم (نصراني)

وكيانُ (مسجدِ) قريتي مَنْ ذا الَّذي

يُبقــي عليــهِ إذا أُزيــلَ كيانــي

إنّ صِلَتي بعرارٍ وثيقةُ العُرى، عميقةُ الجذورِ، تجعلُني أُجْمِلُ أهمَّ صفاتِهِ وخصائِصِه الَّتي عرَفْتُها فيهِ: وجهٌ نحاسيٌّ لا يَنْدى، وقلقٌ دائمٌ مستحوذٌ عليهِ، ووفاءٌ لافتٌ، فيومًا كنْتَ تلقى شاعرَنا عربيًّا قوميًّا، ويومًا أردنيًّا إقليميًّا مفرطًا،

ويومًا قطبًا مِنْ أقطابِ المعارضةِ، ويومًا مِنَ الموالينَ للقصرِ وآخرَ مِنْ روّادِ خرابيشِ النَّوَرِ، لم تُبْطِرْه الألقابُ والنِّعمةُ، ولا تضعضعُهُ المنافي والنِّقمةُ، أَلِفَ الشّقاءَ والحرمانَ. وخلاصةُ القولِ كان عرارٌ فريدًا في حياتِهِ، لا تلذُّ له حالةٌ حتّى يثورَ عليها، ولا يطمئنُّ إلى عيشٍ حتّى يحارِبَهُ.

(يعقوب العودات، عرار: شاعرُ الأردنّ)

عبقريّةُ عُمَرَ
لـ (عباس محمود العقّاد)

«... لم أرَ عبقريًّا يفرى فَرْيَهُ»

كلمةٌ قالها النبيُّ –عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ– في عمرَ –رضيَ اللهُ عنه–، وهي كلمةٌ لا يقولُها إلّا عظيمُ عظماءَ... فمن علاماتِ العظمةِ الَّتي تحيي مواتَ الأممِ، أن تختصَّ بقدرتينِ لا تُعْهدانِ في غيرِها، أولاهما: أنْ تبتعثَ كوامنَ الحياةِ، ودوافعَ العملِ في الأمّة بأسرِها، وفي رجالِها الصّالحينَ لخدمتِها، والأخرى: أنْ تنْفَذَ ببصيرتِها إلى أعماقِ النُّفوسِ، فتعرفَ بالبديهةِ الصائبةِ والوحي الصادقِ فيمَ تكونُ عظمةُ العظيمِ، كلتا القُدرتينِ كانَ لهما الحظُّ الوافرُ في سيرةِ عمرَ بنِ الخطابِ.

والعبقريةُ ضَرْبٌ من التفرّدِ والسَّبْقِ والابتكار في معنييها القديمِ والحديثِ، ويوصفُ عمرُ بالعبقريّةِ إذا نظرنا إلى أعمالِه، ويوصفُ بها إذا نظرنا إلى تكوينِه الَّذي جعلَهُ مستعدًا لتلك الأعمالِ مضطلعًا بتلكَ القدرةِ، وكان عمرُ رجلًا مميزًا بعملِه، ممتازًا بتكوينِه، وكانَ وفاءُ شرطِ الامتيازِ والتفردِ في عرف الأقدمينَ والمحدثينَ من المؤمنينَ بِهِ وغيرِ المؤمنينَ.

كانت نظرةٌ إليهِ ﷺ قبل السّماع بعملٍ من أعماله– توقعُ في الرَّوعِ أنّه مِنْ معدِنٍ مِنَ الرّجالِ غيرِ معدِنِ السوادِ، وأنّه جديرٌ بالهيبةِ والإعظامِ، خليقٌ أنْ يُحسبَ له حسابٌ.

كانَ مهيبًا رائعَ المحضرِ حتّى في حضرةِ النبيِّ الذي تتطامنُ عنده الجباهِ وأوّلُها جبهةُ عمرَ. أَذِنَ النّبيُّ يومًا لجاريةٍ أنْ تفيَ بنَذْرِها : لتضْرِبَنَّ بدفِّها فرحًا أنْ ردَّه اللهُ سالمًا» فأذِنَ لها –عليه الصلاة والسّلام– أنْ تضربَ بالدفِّ بين يديه، ودخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، فما هو إلّا أنْ

دخلَ عُمرُ حتى وجَمَتْ وأسرعتْ إلى دفِّها تُخْفيه، والنبيُّ عليه السّلام يقول:» إنَّ الشيطانَ ليخافُ منكَ يا عمرُ».

ويرى العالمُ الإيطاليُّ «لومبروزو» أنّ للعبقريةِ علاماتٍ تتفقُ وتتناقضُ، فيكونُ العبقريُّ طويلًا بائنَ الطّولِ أو قصيرًا بيّنَ القِصَرِ، ويعملُ بيدِه اليسرى أو يعملُ بكلتا يديهِ، وغزيرَ الشَّعْرِ أو نزيرَه على غيرِ المعهودِ في سائرِ النّاسِ، ويكثرُ بينَ العباقرةِ جيشانُ الشّعورِ وفرطُ الحسِّ وغرابةُ الاستجابةِ للطوارئ والفِراسةُ، وفي عمرَ بن الخطابِ مِنْ هذهِ العلاماتِ كثيرٌ، فكانَ طويلًا يمشي كأنّه راكبٌ، وكانَ أعسرَ يسرًا، يعملُ بكلتا يديهِ، وكانَ أصلعَ خفيفَ العارضينِ، وقيلَ فيه إنّه خيرُ النّاسِ إلا أنّه إذا غضبَ فهو أمرٌ عظيمٌ، وكانَ سريعَ البكاءِ، إذا جاشتْ نفسُهُ بالخشوعِ بينَ يدي الله.

نحنُ أمامَ رجلٍ لا كالرّجالِ، أنقولُ رجلٌ قويٌّ؟ نعم هو قويٌّ لا مراءَ، كما أنّ العدلَ والرحمةَ والغيرةَ والفطنةَ والإيمانَ الوثيقَ صفاتٌ مكينةٌ فيهِ، وأعجبُ مِنْ هذا التوافقِ بينَ صفاتِه أنّ الصّفةَ الواحدةَ تستمدُّ عناصرَها مِنْ روافدَ شتّى، ولا تستمدّها من ينبوعٍ واحدٍ، ثُمَّ هي بعدَ ذلك متفقةٌ لا تتناقضُ، خذ مثلًا عدلَهُ المشهورَ، فكم رافدةً لهذا الخُلُق في نفسِ هذا الرجلِ العظيم؟ روافدُ شتّى: بعضُها مِنْ وراثةِ أهلِه، وبعضُها مِنْ تكوينِ شخصِهِ، وبعضُها مِنْ عِبَرِ أيّامِه، وبعضُها مِنْ تعليمِ دينِهِ، وكلُّها بعدَ ذلكَ تمضي في اتجاهٍ قويمٍ إلى غايةٍ واحدةٍ، فالعدلُ مثلًا هو المساواةُ بينَ أبعدِ النّاسِ وأقربِهم في قضاءِ الحقوقِ، وإقامةِ الحدودِ، وليسَ أقربُ إلى الحاكمِ مِن ابنِه، فإذا سوّى الحاكمُ بينَ ابنِه وسائرِ الرّعيّةِ فذلك عدلٌ مأثورٌ يقتدى بِهِ الحاكمونَ، ومِنْ أمثلةِ ذلك حكمُهُ في حادثةِ جَبَلة بن الأيهم وكان أميرا نصرانيا، فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه، ثم وطئ أعرابيٌّ إزاره فلطَمَهُ جبلةُ على ملأ مِنْ حُجّاجِ بيتِ الله، فقضى عُمر للأعرابيِّ أنْ يلطمَ الأميرَ على الملأ، وما منطلقُهُ في حكمِهِ

هذا سوى قاعدةٍ من قواعدِ الإسلامِ الَّذي لا يفرقُ بين سُوقةٍ وأميرٍ، وما العدلُ بغيرِ الرّحمةِ الَّتي تمزجُهُ بالإحسانِ؟ وما العدلُ والرحمةُ معًا بغيرِ الحماسةِ الرّوحيّةِ، والغيرةِ اليقظى الَّتي تجعلُ كراهةَ المرءِ للظّلمِ، كأنّها كراهةُ الضّررِ الَّذي يصيبهُ في نفسِهِ وآلِهِ.

وما كلُّ تلك الصفاتِ بغيرِ فطنةٍ تضعُ الأمورَ في مواضِعها، كلُّ صفةٍ تتمةٌ لجميعِ الصفاتِ، وكل الصّفاتِ روافدُ لغرضٍ واحدٍ، يتمُّ بهِ نصرُ الحقِّ وخذلانُ الباطلِ، فعمرُ ذو البأسِ والعدلِ وعمر ذو الرّحمةِ والغَيْرةِ، وكانَ بأسُه معوانًا لرحمتِه، وكان قويًّا لينتفعَ الناسُ بقوّتِهِ ولم يكنْ قويًّا ليطغى بقوّتِهِ على الضُّعفاءِ.

تلكَ صورةٌ مجملةٌ للصّفاتِ الخُلُقيّةِ الكبيرةِ الَّتي كانت غالبةً على نَفْسِ عمر بن الخطّابِ –رضي الله عنه– وهي العدلُ والرّحمةُ والغيرةُ والفطنةُ والإيمانُ.

(عبّاس محمود العقّاد، العبقريّات/ عبقريّة عمر)